



صدرت مؤخراً، عن منشورات ضفاف في بيروت ومنشورات الاختلاف في الجزائر، رواية «لا ماء يرويهها» للأديبة السورية نجاة عبد الصمد.

تحمل الرواية سيرة العطش في أرض السويداء البعلية في أقصى جنوب سوريا، وتسير على مستويين: سطح الحكاية محمول على قصة حب ملتبسة وممتدة بين ناصر وحياء، بطليّ الرواية، العاشقين الخاسرين اللذين تمضي لعنة العطش بمصيريهما بعيداً عن صبوة الأحلام، إلى حيث لا تصل السهام مراميها أبداً. ومحمول كذلك على رحلة البحث المضادة عن المياه الجوفية على متن الحفارات القادمة من الشمال السوري. ثمة خطٌّ موازٍ يحفر في سيرة مجتمعٍ يحكمه الجفاف السياسي وتقاليد مجتمعيةٍ شديدة الوطأة على حياة أشخاص الرواية الذين يلوذون إلى فسحة التعليم والثقافة والفنون كبديلٍ عن فشلهم في مواجهة التصحر السياسي والاجتماعي الذي انتهت إليه تيارات اليسار مع نهاية القرن العشرين.

تنقل الرواية على خط زمني متتابعٍ يمتدّ على مدى النصف الثاني من القرن العشرين، وبأصوات متعددة، أشبه بنشيحٍ خافتٍ ينفلُ من جغرافيا الجنوب ليبتّ سيرة العطش بمعناه الأوسع، ويفتح نافذة يمكن التلصّص من خلالها على أكثر المجتمعات سرّانيةً في هذا الشرق.

تضيف الرواية إضاءات مؤثّرة على عقائد مجتمع الدروز وعلى عوالمهم الجوانية فيما يبدو أقرب إلى تشریح أنثروبولوجي ممتزج بالمرويات الشفاهية من الجدّات إلى البنات، وبالأساطير التي رافقت تلك الجماعة بعد ارتحالها إلى جبل حوران.

ويحضر المكان في رواية «لا ماء يرويهها» كبطلٍ إضافي في تحولاته، وفي التباس علاقة عمارة البازلت بساكنيهما في قسوتهم ورقّتهم، في جفافهم وتوقهم إلى الماء في آنٍ معاً.

رمان تنشر فصلاً خصّتنا به الكاتبة..



أن تكوني امرأة، هذا ألم.

تتألمين حين تصيرين صبيّة

وحين تصيرين حبيبة تتألمين

وحين تصيرين أمّاً...

ولكن ما لا يطاق على هذه الأرض

هو أن تكوني امرأة

لم تعرف هذه الآلام كلها

بلاغا ديمتروفا - شاعرة بلغارية

وليس آخرًا..

لم تصدق بشارة أمي.

كنا أطفالاً نلعب الغميضة في عمرة الجيران، دفعني أخي ممدوح إلى عامودها، فجّ العامود رأسي، وركضت أمي على صراخي:

"هصصص.. بدل أن تبيكي هاتي البشارة، كلّ أرضٍ يسيل عليها دمك يُكتَب لك فيها موطئ قدم".



أربعون عاماً ولم تصدق بشارتها. ولم تكذب كذلك. خطأً صغيراً في القياس أزاح مصيري بضعة أمتار، من صدر بيت الجيران إلى غرفة الكَرش في قعر بيت أهلي.

تلكأْتُ في انحداري إليها عبر الدرج الداخليّ شبه المهجور، لا ضوء يكفي لأرى حواف الدرج المفتتة، ولا درابزين يُسورها لأتكئ عليه، عند الدرجة الخامسة نزولاً توقفتُ لأشدّ حمالة الجراب لكزني عكّازُ أُمي في ظهري، وصلتُ الدرجة السابعة، العاشرة، تخرج من تحتي الباطون وضاق نَفسي، واشتبتكُ بريسكُ أُمي في مسمعي بالضجيج الطالع من رأسي.

أسندتُ يدي إلى الجدار وقطعتُ الدرجاتِ الثلاثة الأخيرة بالبطء الممكن قبل دنوّ القاع.

لاقاني الباب الخشب، مفتوحاً على وسعه لاستقبالي، لونه رصاصيٌّ مطقّى، لحق أبي قبل أن يموت أن يطلوه بلون الوحشة التي أخاف.

انغلق البابُ عليّ، أقفلته أُمي من الخارج ودستت المفتاح في عنّها، قرب قلبها الأبعد من أن يصغي إليّ.

صرتُ في انفراديّي الواسعة. ليس حولها سوى الردم والتراب. يعلو جدارها الغربي سبعين سنتيمتراً عن سطح الأرض، تشغله نافذةٌ مسوّرةٌ بقضبان حديدٍ مدهونٍ بالقرمزيّ الكامد. سندتُ كرسياً مخلوع الرجل ببلوكيةٍ ثقيلة واعتليته لأفتحها. صرّ مزلاجها قبل أن يستجيب ويأتينني بالهواء والضوء وأصوات بشرٍ بعيدين.

عزّلتُ غرفتي من فوضاها ومن أنين أشيائها ومن خرائب الماضي إلى أن استويتُ فيها مرتاحةً كأنني كنتُ على سفرٍ وعدتُ إلى هُناي.

تمدّدتُ على الأرض، أرخيتُ أذني على خدّها أصغي إلى عزّلتني وأتعلّم الصمت.

ثم نهضتُ. رتقتُ سجادةً قديمة، أعدتُ للكرسيّ رجله المخلوعة، استوى التلفزيون الأسود والأبيض على الطاولة. لم يجذب الأنتين الداخلي سوى محطتين سوريّتين أرضيتين. لا أسمع الأخبار ولا مسلسلات السهرة. أرصد البرامج



المنوَّعة. منها قد يطلُّ بيل كلينتون، وسامته الباذخة، روماريو، رشاقتة المدوَّخة، عبد الحليم حافظ، شجنُّه العالق في صدري كزفرةٍ حارَّة. بهم أوقد لجمر الرغبات وأُعيد نسجهم بخيطان الكركر السهران معي حتى مطلع الفجر.

في الصبح أتنصت إلى خطو أمي أو أختي على أرض طابقيهم فوقي. هذه دعسة أمي الثقيلة يسبقها عكازها إلى الحمام، وهذا المشي السريع هو حومان ختام بين طاولة زينتها وباب خزانتها المفتوح أبداً، وهذا صراخ منتهى تستعجل أمي التي طال مكوثها في الحمام. وهذا السكون يعني أنهما راحتا إلى الشغل وعادت أمي إلى جلسات بحلقها في صور ممدوح وعناد.

في الليل تحلُّ فيّ طاقةٌ عالية وبغدو الله أكثر قرباً. الليل أنيس طالما أنا صاحبة. ضوء لمبة النيون الوحيدة يكفي لأرى كل ذرة غبارٍ تشاركني سكني، نسيج العنكبوت عند حافة النافذة، بقع العطن على السقف والجدران، أنظفها وتعود كالذكريات العاصية. من الجدران يأتي هسيس ناعم، أخاله سرب نملٍ يحفر طريقه بين شقوق التراب، لو تُعرج النمال وتزورني لألقمها من طعامي. أغفو فوق قصائد قباني، في الحلم أكون سمراءً وشامه وأندلسه. أفيق لأتريض بين كتابين لجبران خليل جبران وطاغور عثرث عليهما وسط أنقاض غرفة الكرش، أوراق الكتابين مفرطة، لا بدّ أنهما كانا لأخي ممدوح، لم يكن أحدٌ يقرأ في بيتنا سوى ممدوح.

من نافذتي ناديُّ ابنة الجيران؛ صبيُّه بعينين كالعسل، وصوت كهديل حمامةٍ كسلى، سألتها أن تشتري لي أيّ كتابٍ رائجٍ هذه الأيام. ناولتني روايةً من بين القصبان. قرأتها بضنّ مرّةً واثنين، رافقت ذلك الراعي في رحلته من أرضٍ لأرض، تمددت معه على فرشة التراب، تحت نجوم المدن الغربية، وصل الراعي إلى حيث قصد، وانكشف عن عينه أنّ كنزه الذي غامر ليعود به مدفونٌ هناك تحت الشجرة التي نام في ظلّها لسنين.

لو كان الراعي يعلم؛ لو كنتُ أعلم...

أشتهي أن يلفحني بردُ الشتاء، أو تُبَّع وجهي شمسُ الصيف. صيفان مرّاً، وشتاءان، ولم أغادر غرفتي. أخال عشباً



ينمو بمشقة خلف قضبان الحديد، أشم رائحته، عطشه، أمدّ يديّ خارج القضبان، أنكسُ التربة، أعيد زرع الحبق والقرنفل، أسقي شتلتي، أناغيها وأطلق عبر ضوعها سبعين مرسالاً إلى جهات الأرض الست.

سنتان، ولم يعد من مراسيلي أحد. سنتان وأنا أتعلّم كيف أبدأ حياة واعية، أن ألحق في منتصف العمر ما ضاع في أوله..

أشتهي تمشياً في المدينة القديمة لأعاب أحجارها، لأحمي ذاكرتها من الهرم أو الخريطة، لأشدها من أذنها كي لا تشي بالبنات الهاربات إلى العشق، ولا تتسرّ على الصبيان الهارين من المدارس.

أشتاق لأخبار الناس، أشتاق حتى لنائمهم. أنفض رأسي وأتمشى في غرفتي حتى التعب، أو أعيد ترتيب أحجار الشطرنج فوق الطاولة.

أنا لا أتقن لعبة الشطرنج، وليس في مصيري وضوح كرقعة مربعاتها البيضاء والسوداء، وليس عندي طاقم كامل من الجنود إلى الملك، عندي منها بضعة أحجار رأيتها يوماً تتساقط من بين قضبان نافذتي. يومها ارتخت يداي عن سنارتي وخطاني وانشغلت كلّي برصد هذا الغزو اللطيف. توالى انهمار الأحجار، كل حجر يستقرّ قرب النقطة التي سبقه إليها أخوته، كأن راميهما يجتاز امتحاناً في رياضة الرماية بعد طول تدريب. حين توقفت المقذوفات، علت أصوات الأولاد من جديد. كمشث من علبة الملابس الحلو ملء يدي، ووقفت على الكرسيّ لأواجه النافذة وأنثر الملابس بين أقدامهم. ارتعب الفتيان الصغار حين رأوني. لم تشفع لي لديهم لا سكاكري ولا ابتسامتي الطالعة من قلبي المشتاق لأولادي حتى التلف، تراكضوا هارين مني، من جنيّة تطلع لهم من قبو مهجور. الصغير بينهم يركض وينظر إلى الخلف، شعره قصيرٌ وعيناه لامعتان بدمعة رعب، كم يشبه ولدي سلطان حين كان في عمره!

تفقدت حصيلة الغزو الأنيس، أحجار شطرنج من البلاستيك المضغوط: لا أميرَ بينها ولا ملك، بل سبعة جنود أغبياء، وحصانٌ مكشوط الغرّة، وقلعتهٌ مثلومةٌ من خاصرتها، والنصف السفليّ لما أعتقد أنه الفيل، وكان بينها أيضاً: حجرا نرد.



انتظرتُ أن يعود الأولاد في طلب الأحجار ولم يعودوا. صقفتُها على الطاولة، وأنفقتُ أوقاتاً كثيرةً ألعب بالنردّين، أهزهما بين كفيّ وأرميهما على الأرض، على انتظار أن يستقرّ نرداي، ولو مرّةً على سبيل التعاطف، على وضعية "دوشيش".

أنشغلُ بجياكة المفارش، أحوكُ أعطيةً لوسائد الليل، كنزةً تدرأ برد الروح، أو شالاً يسافر إلى أحبةٍ تاهت عني مصائرهم منذ انتهيتُ إلى غرفة الكرش.

بموجِ يدي مع الخيطان أقتل شياطين عالمي الجواني، أركنُ إلى أنّ الله يحبني هكذا كما أنا؛ يدين جلوهما عرقُ العمل.

صرتُ أعشقُ كل منسوجةٍ حين تكتمل، وأحزن عليها حين أسلمها لأختي منتهى لتمضي بها إلى بائع المشغولات التراثية، وأفرح حين تعود إليّ بأثمانها الكافية للزوم حياتي القليلة.

"الأسعار في ارتفاعٍ يا حياة، أصبح سعر كبة الخيطان الواحدة 200 ليرة"

أهمّ أن أسألها: وعلبة الكولا؟!

ولن أطلب الكولا، فقط لو رشفتُ ماءً من خابية العمّة "زين المحضر".

وجعلتُ مهنتي انتظار ناصر، الشوق لندبة الجرح الفدائي فوق خده، غيّبتُ له كي يعود!

يا بو كذيلة منّرة/ حاجة دلال وغندرة/ بليتني بمحبّتك/ ما لي عليها مقدرة

بليتني برمش الهدب/ يا زين يا حلو الأدب/ ما ربي مثلك بالعرب/ ولا بقصور معمرة



الآن، تخذلني الذكريات، لا تأتيني مرسومةً على البيكار، تهطل مشتتةً وغاضبةً، ومتزاحمةً وعائرةً وملحاحة.

ناصر؛ لو كنت أعلم أنني، في كل الليالي التي جافاني النوم كنت أحيًا صاحبةً في حلمك؛ لربما لم أتتِه هنا. ناصر؛ قد كسرت حياتي مرتين؛ تواريت حين كان عليك أن تعود، وعدت حين كان عليك أن تتواري.

وما أزال أنتظرك، أنادم وحدتي وأنتظرك، أنشوي بجمار الندم وأنتظرك، كما انتظرت أُمي حسنَ الغريب أنتظرك، أشيح الطرفَ عن أن حظَّ البنت مثل حظَّ أمها وأنتظرك.

وإلى أن تعود مراسيلي بخبر، أدخر اسمك كصلاة، أستكثره على النطق، أحتفظ به كمفتاح الحكايات النديّة، أعفّ عن لمسهِ كي لا ينفطر عقد البهجة بين حروفه، أخاف أن يطفو اسمه على وجهي أو جلدي أو لساني، أو يفلت مني خارج هذي القصبان في لحظة أسى جارف.

الكاتب: [رمان الثقافية](#)